(١٤)

ظاهر الله وغيب الله
في لا إله إلا الله

حديث الجمعة

٢٣ رمضان ١٣٨٠ هـ - ١٠ مارس ١٩٦١ م

أوجهان.. أأمران.. أربان.. أإلهان.. أحقان...؟!

لا إله إلا الله. هو الله الحي القيوم. لا يحاط بشيء من علمه إلا بما شاء. استوى إنسانه على عرشه في غيب لا يدرك، واتسع بكرسيه للسموات والأرض في ظاهر أمر يدرك.

ما وحَّد موحد إلا والاثنينية صفة قيامه. وما أوجد موجد وجودا إلا والأحدية صفة قيومه.

إن الرسالة التي جاء بها رسل الله، ما جاء بها هؤلاء الرسل ليُعْلِموا عن وجود الله في نفسه أو ذاته أو غيبه، ولكن ليُعلِّموا عن وجود الله في خلقه.

كان الخالق في أحديته، وفيها أوجد الخلق فظهر بصفاته وأول تعدداته بتجلياته وتكنزاته، باثنينيته من خالق ومخلوق.. هما في حقيقةٍ واحدة لله تجمعهما، فتغيب الخالق من ظاهر هذه الحقيقة، وتظاهر بالخلق - علما عليه - من هذه الحقيقة. وهذه الحقيقة تجعل من ظاهر الخلق ظاهرا لها، ومن غيب الخلق غيبا لها. وبذلك كان ظاهر الخلق هو ظاهر الله، وغيب الخلق هو غيب الله. وكان الله جامعا للظاهر من أمره، وللغيب من أمره من حقيقة الخلق والخالق. إن الله في غيب وظهور بحال سرمدي، خلق فسوى. وفيه العظيم والأعظم لهما سوى.

إذا شهدنا شهدنا أنه لا إله إلا الله في ظل هذا الإدراك، وفي ظل هذا البيان، وفي ظل هذا الاعتقاد استقامت شهادة أن لا إله إلا الله في أنفسنا، ومن حولنا، وفي قيامنا، فكنا لا إله إلا الله بقيامنا، ولا إله إلا الله في بطوننا، ولا إله إلا الله مع ما حولنا، فكانت لا إله إلا الله حصننا، وحياتنا، وغذاءنا، وحمايتنا، وقدرتنا، وقوتنا، وطريقنا، وحاضرنا، ومستقبلنا، وماضينا.

ها نحن في هذه الجماعة نحاول أن نعلم أنه لا إله إلا الله، ونحاول أن نشهد أنه لا إله إلا الله.. مستميتين في محاولتنا.. يعمل بنا رب الفلق، كما يعمل معنا الله أحد.. كما يعلمنا الواحد الصمد في دائرة لا إله إلا الله.

ها هي السنون تمضي بنا، والوقت يقطعنا ونقطعه، ونمضي به كما مضى بنا، ونحن في محاولتنا على الدرج الأول من معراج لا إله إلا الله.

ها نحن نستعين بالله قيوما حيا في حياتنا، وفي قيامنا، وفي عقائدنا، وفي آمالنا، وفي رجائنا، وفي توكلنا، وفي اكتفائنا، وفي حسبنا، مؤمنين برسوله قريبا في قربه، ظاهرا في ظهوره، بعيدا في بعده، متعاليا بتعاليه.. إنه عبد ربه.. إنه عبد الله.. إنه عبد إنسانه.. إنه إنسان رحمانه.

وها نحن نحاول أيضا أن نعلم أن محمدا رسول الله، حتى تتهيأ لنا الأسباب فنشهد أن محمدا رسول الله، فيتسع أمامنا الرجاء - وقد يصادفنا العطاء - فنرانا محمدا رسول الله، فنقوم محمدا رسول الله، فنعلِّم محمدا رسول الله، فنشهد ويُشهَد محمدا رسول الله، في أنفسنا وعلى أنفسنا ومن حولنا. حسبنا هو ونعم الوكيل.. ففي هذا حسب الله والتوكل على الله.

إذا حاولنا العلم عن لا إله إلا الله، وحاولنا مشاهدة أن لا إله إلا الله، وانتقل بنا ذلك إلى العلم بأن محمدا رسول الله، وشهدنا بذلك أن محمدا رسول الله فقد أقمنا الركن الأول من أركان الإسلام.

وها قد مرت بنا الأيام، وأوشك العمر أن ينقضي، في نظرة للزمان تطول أو في لمحة من الزمان تُعلم.. ونحن - كما قلت - نحاول أن نعلم ونشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فتسير بنا الأقدام خطوات، وتكبو بنا الأقدام مرات، ونصعد السلم في ثقاقل وبطء درجات، وأمامنا الطريق منظور، والأمر معلوم، والسلم مشهود.. ولكن أين لنا الطاقة وأين لنا الهمة على هذا التصاعد.. على هذا المرتقى؟ وقد حُفت الجنة بالمكاره، وأحاطت بنا النار بالشهوات. غريب أمر الدين علينا، مجهول أمر الدين لنا، يحول بيننا دونه وهم العلم به، وخيال الوصول إليه بلفظ يلوكه الفم ولا يقوم به القلب ناطقا أو قارئا أو كاتبا. لا إله إلا الله محمد رسول الله.. ألفاظ يتحرك بها اللسان، ولا يتحرك بها الجنان، ولا يقوم بها الوجدان، ولا يتعشق لها القلب، ولا يخشى في أمرها له معلوم رب!

أين هو دين القيمة؟ أين هم القيمة؟ أين هم المجاهدون في الله؟ أين هم الظاهرون بالله؟ أين الذين هم ذكر الله؟ أين هم القائمون على النفوس بما كسبت؟ أين عباد الرحمن يمشون على الأرض هونا، وينشرون بخلقهم في الناس السلام، بالمسالمة في هذا القيام؟ أين تبادل الوعي؟ أين التواصي بالحق؟ أين التواصي بالصبر؟ أين المجاهدة في الله؟ أين التعاون على طريقه؟ أين الدليل؟ أين السبيل؟ أين

التكاتف في البحث عنه في عباده بين عباده ممن تولى الله أمرهم، وممن قوَّم الله ذكرهم، وممن أنار الله قلوبهم، وممن أنطق الله ألسنتهم، وممن حقق الله عقولهم، وممن زكى الله أنفسهم، وممن قوم الله جوارحهم، وممن جعلهم لبنات بناء بيته تتوحد فيرتفع إلى عنان السماء.. بيت قبلته للناس، وساحة رحمته للناس، ومدينة معرفته للناس، وشمس إشراقه في الناس، من الناس لبناته وللناس آياته وصفاته؟

إن الناس يؤَدون منسكا في ضجيج من حجيج، أو منسكا من اصطفاف لصلاة مستقبلين بيت الله، وما استقبلوا لله بيتا، ولكن استقبلوا ظلام أنفسهم، يرتد إليهم بجهلهم فما يزدادون بإتيان مناسكهم من الله إلا بعدا. فما وضع المنسك إلا على أسس تقبلها العقول، وعلى أمور يقوم بها حاضر القيام من الناس، في حقائق يكشف عنها العلم، ويبينها العلم، ويقربها للإدراك العلم، ويكشفها للعقل العلم، مصدره العليم الخبير، يؤتي بيانه، ويحقق إنسانه، ويجمع شتات بنيانه في لبنات من الناس يسعون إليه طالبيه في أنفسهم، يتجمعون على ذكره متواصين، يقلب منهم القلوب، ويغفر لهم ما سبق وما بقي من الذنوب، ويستر عن غيرهم ما تبقى فيهم من العيوب.. يكشفها لهم في ستر بينه وبينهم، يواسيهم على عيوبهم بوصفها بالحسنات لأنه ما خلق الكمال إلا من كائن معيب، فكانت الكينونة المعيبة هي الأصل للكينونة الكاملة القريبة - {يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله. إن الله يغفر الذنوب جميعا}[1]، {ما يفعل الله بعذابكم}[2] ما يرسل الله بآياته من العذاب إلا تخويفا.

إن الله لا يبرز آية إلا لمن تجاهل نفسه لله في الله آية. إن آية الله لك إنما هي عين وجودك، وعين قيامك، وعين شهودك، وعين مشهودك. إن آية الله للمؤمن، إنما هي قيامه، مؤمنا بالله طائعا لله، أو عاصيا لأمر في الله.

إن الله في حقيقة الأمر لا يعصى من عاصٍ، ولا يطاع من طائع إلا بأمره، ولكن الله في حقيقة أمره إنما يقوم بأمره في قائم به. وما جاءت الأديان في كل زمان وفي كل أرض ومن أي إنسان إلا لتكشف هذا وتُعلِّمه وتشق للناس إليه طريقهم.. أن يقوموا الله معتقدين، فيقومَهم الله مكرمين.. أن يقوموا الله مسلمين، فيقومهم الله مؤمنين.. أن يقوموا الله طالبين فيقومهم الله متيقنين. وهذا ما يدَّعونه لأنفسهم باسم الأديان بزعم الموحدين.

إن الناس في قيامهم بالله، وحياتهم بالله، ومناسكهم بالله، وبعدهم بالله، وقربهم بالله، ما قربوا في قربهم إلا إلى أمرهم في أنفسهم، وما بعدوا في بعدهم إلا في بعدهم عن إدراك الله في أنفسهم، وما استقام أمرهم وانتظم عقدهم إلا في قيامهم قيام الله بوحدانيته، وما انفرط عقدهم وخبا أمرهم إلا

في جهلهم لقيامهم قياما لله. ما وحَّدوا الله إلا بإدراكهم وحدَانية الله في وحدانية أمرهم أمرا لله.. وما قطعوا أنفسهم عن الله إلا في عزل أمرهم وقيامهم وشأنهم عن أن يكون لله {قل ما عند الله خير...}[٣]، {قل كل من عند الله}[٤]، {ولو شاء ربك ما فعلوه...}[٥]، {الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم. والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم}[٦]، أولئك.. {النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم}[٧]، أولئك صلى عليهم النبي فكانت صلاته سكنا لهم، واستغفر لهم النبي فكانت المغفرة نصيبا لهم، أولئك نفوس دخلت في عبد الله مطمئنة راضية، فكانته في رضائه وزادها من طمأنينته. انتشرت فيه لأنها منه فكانت طليقة في السموات والأرض، وما فوق السموات وما تحت الثرى، لأنه عبد الله الذي اتسع لما لم تتسع له السموات والأرض، فكان وطنا للنفوس المطمئنة تحيا فيه، وكان مدينة للعقول المنيرة، والنفوس المشتعلة، والرقاب العتيقة من الرق للألفاظ والمعاني، المتحررة من قيود الصور والمباني، فكان الرسول لها القلب والقالب، وكان الرسول لها العقل والعاقل، وكان الرسول لها القيام والقائم، انطلقت فيه وانطلقت به، فكان وكيلها على نفسها وراعيها من شرورها.. وكان أمر الله لها وأمر الله عليها وأمر الله بها..

هذه هي الحقيقة.. هذا هو الإسلام.. هذا هو الإيمان.. هذا هو اليقين.. قلوب متراصة وعقول متوحدة ونفوس متآلفة.. لا فلق.. ولا فرقة.. ولا انقسام.. ولا قطيعة.. ولكن ألفة ومحبة ووحدة وحياة وقيام.

هل نرى.. هل نرى من يصح أن نشير إليه بأنه المسلم؟ هل نرى من يصح أن نشير إليه بأن إليه يُسلم المسلم؟ هل نرى من يصح أن نشير إليه بأنه المجاهد؟ هل نرى من يصح أن نشير إليه أنه متابع لمجاهد فنتابعه، ونؤاخيه، ونعرف المجاهد (المرء على دين خليله، فلينظر أيكم من يخالل)[٨]؟ هل نتفقه في ذلك؟ هل تدور أحاديث الفقه بيننا حول التفقه إلى ذلك، والتعريف عن ذلك، والإرشاد إلى ذلك والقيام بذلك؟

ها نحن في شهر مبارك من شهور العام، نؤدي فيه منسك الصيام.. فهل صمنا عن الظلام نتغذاه في نهارنا وفي ليلنا باسم الصيام؟ لا نعرف معنى للا إله إلا الله، ولا نعرف معنى لمحمد رسول الله، وهو الذي أرشدنا إلى هذا المنسك.. فهل صمنا عن غيرهما وطعمنا من موائدهما؟ إن الله ورسوله معنا.. إن الحياة تجمعنا.. إنه الحي في حياتنا.. إنه القيوم في قيامنا بالحياة.. أدركنا الحياة أو غفلنا عن الحياة.

إن كل ما يعنينا في حياتنا من كل مظاهر الحياة، إنما يدور على هذه الشهادة التي نصفها بشهادتين، وهي شهادة واحدة، أن نشهد أن لا إله إلا الله، فنعلم من الله أن محمدا هو ذكر الله، وأنه الحق من

الله، وأنه نور السموات والأرض، من نور الله، وأنه القيوم بقيام الله فيمن يقومه، وأنه القائم بيننا مثالا ومعنى لقائم الله على أنفسنا في الإنسان، وأنه معنانا من الله إذا كان الله قد عنانا فعنيناه، وآمنا به أوجدنا فطلبناه، ففي وجودنا وجدناه.

كيف نقول من وراء الكل محيط وننسى أنه من وراء محمد محيط؟ كيف نقول إنه على كل نفس قائم، ولا نؤمن به قيوما قائما في قائم محمد؟ إنه بعثه من خلقيته أماتها - وهو الميت فيه والكل فيه موتى - بعثه بالحق فكان مجيئه مجيء الحق، وظهوره ظهور الحق.. يجيء الحق للجميع على ما جاء لهذا الإنسان الجامع.. يجيء الحق لكل من اجتمع عليه، لكل من دخل فيه، لكل من كانه، لكل من طاف حول بيته، لكل من لبى نداءه فحج.. لكل من رجع إليه عبد أولية تجتمع عليه العباد، وتتابعه على ما كان العباد لتكونه، وتبعثه بالحق حتى يكون الله، وحتى يشهد أن لا إله إلا الله...

بُعث معلما، وقام مُكلما، وواصل في الله متعلما، وقام في الله مكلَّما، وطلب إلينا أن نرى فيه حقا، حتى نكون مرآة لحقه، وحتى يكون لنا مرآة حقنا. فإن كنا معه كذلك، فالحق قمنا وربه وحدناه فكاه، وربنا فيه شهدناه، وفي القيود أخونا عرفناه، وفي التوحيد إيانا شهدناه، وفي العطاء ولدنا لاقيناه، وعملنا رأيناه، وحقنا قمناه، معلما بالله، مُعْلِما عن الله.

انقطعت النبوة من بعده لأن الخلق أصبحوا به الله وحدوه أنبياء، والله اعتقدوه به أولياء، والله قاموه به شهداء، والله عرفوه حقائق.

عرَّف ما عَرَف عن الله. وقام بما اتصف من الله. وامتد فيمن امتد فيه نور الله. هل عرف الناس عبد الله؟ هل شهد الناس وجه الله؟ هل قامه الناس وجوها لله لا تلحقها غبرة ولا تنالها كدرة، ناضرة له به ناظرة.. لا يلحقها الفناء، ولا ينال منها الجزاء، ولا يزعجها الحساب، ولا يمتنع عليها الإياب.. إيابا إلى قديمها من أحسن تقويم.. وإيابا إلى مستقبلها أحسن تقويم، بقيامها في أحسن تقويم؟ هل طلب الناس رسول الله فعرف الناس رسول الله؟ هل آمن الناس برسول الله فآمنوا بالله في أنفسهم؟

نرجو أن يرزقنا الله شهادة أن لا إله إلا الله، وأن يرزقنا رسول الله شهادة أن محمدا رسول الله، ونرجو من أنفسنا أن لا نقاوم العلم عن لا إله إلا الله أو العلم بأن محمدًا رسول الله - هذا ما يجب أن نسعى إليه، وأن نعمل له، وأن نرجوه لأنفسنا في يومنا وغدنا.

اللهم قوم فيك سبيلنا.. وحقق فيك رجاءنا.. وأوفر منك حظنا.. وقرب إلينا المنال لآمالنا.. وأحيي اللهم بماء الحياة منك.. من فيض بحار جودك.. أرض قلوبنا، وتخلل بإشراق نورك رؤوسنا

وعقولنا.. وقوم بفضلك وقدرتك وحكمتك جوارحنا وأعمالنا.. وخذ بيدنا في الطريق.. وفي السبيل.. إلى وحدانيتك نشهدها كما نقومها ونجهلها، ونعلمها كما نزعمها ونخاصمها، ونسعدها كما نشقاها بغفلة عنها.

اللهم أعلِ كلمة الحق والدين، وانشر كلمة اليقين، وامحُ ظلام نفوسنا، وظلام دنيانا، وظلام ما حولنا، وأنر الحياة بسلامك لنا، وأنزل سكينتك على قلوبنا، والسلم والسلام على أرضنا، وولِ أمورنا خيارنا ولا تولِ أمورنا شرارنا بما كسبنا، وبما ظلمنا أنفسنا.. لا إله غيرك ولا معبود سواك.. عبدنا لك يا مولانا.. وكن لنا في رجائنا وفي مسعانا.. لا إله إلا الله محمد رسول الله.

أضواء على الطريق

- {وما أرسلناك إلا كافة للناس}[٩].
- {لكم في رسول الله أسوة حسنة}[١٠].
- (ما أعطيته فلأمتي)[١١].
- (من خالف سنتي فليس مني)[١٢].

مصادر التوثيق والتحقيق

١ سورة الزمر - ٥٣
٢ سورة النساء - ١٤٧
٣ سورة الجمعة - ١١
٤ سورة النساء - ٧٨
٥ سورة الأنعام - ١١٢
٦ سورة محمد - ١-٢
٧ سورة الأحزاب - ٦
٨ حديث شريف: (المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل). أخرجه أبو داود، وأحمد، والترمذي.
٩ سورة سبأ - ٢٨
١٠ سورة الأحزاب - ٢١
١١ عبارة للسيد رافع يمكن تأمل معناها ومغزاها في السياق.
١٢ من حديث شريف طويل: "... أَمَا واللهِ إنِّي لأخشاكم للهِ وأتقاكم له لكنِّي أصومُ وأُفطِرُ وأَصلِّي وأرقُدُ وأتزوَّجُ النِّساءَ فَمَن رغِب عن سنَّتي فليس منِّي." صحيح البخاري، وصحيح ابن حبان.